من اسخيلوس

لايوس وأوديب

« درامتان مفقودتان »

للأستاذ دريني خشبة

مقدمة : كانت محنة بيت لايوس ملك طيبة ، من أعمال بووطيه إحدى مقاطعات هيلاس ، مرتعا خصبا لأخيلة شعراء اليونان ، وقد اتخذوا منها مادة خالدة لمآسيهم ، وكتب فيها إسخيلوس ثلاثا من أروع مآسيه هى لايوس ، أوديبوس ، سبعة ضد طيبة . وقد فقدت الدرامتان الأوليان مع الأسف الشديد ، وبقيت الثالثة التى تنم بأسلوبها الرائع عما كانت عليه أختاها من الكمال والسمو . ومما يعزينا عن فقدتينك الدرامتين ما وصل إلينا من آثار سوفوكليس ؛ فقد ساهم هو الآخر فى تخليد تلك المآسى وأبقت غير الأيام على درامتيه القويتين (أوديبوس الملك) و (أوديبوس فى كولونوس) ولما كنا لم نسخ تقديم الدرامة الباقية من ثلاثية إسخيلوس وهى (سبعة ضد طيبة) دون التعريف بالدرامتين اللتين تقدمتاها فقد آثرنا تلخيص هاتين الدرامتين عن مصادر محترمة موثوق بها على أن نلخص الدرامة الباقية بعد ذلك

— ١ —

تزوج لايوس ملك طيبة من الأميرة الجميلة جوكاستا ، ومضت سنون والملكة لا تنجب ؛ فكان عقمها يشجى الملك ، ويكدر صفو حياته ؛ وكانت هى أيضاً تحس مما يحس زوجها من مرارة الحياة بلا ولد ، وإقفار القصر من بليل غرد يملؤه موسيقى ويعمر ما أجدب روحى المليكين ، ويربط قلبيهما برباطه المقدس الذى لا ينفصم

فكان الملك وقتاً ما شقيا ، وكانت الملكة وقتا ما شقية

— ٢ —

ثم أخذها المخاض فجأة ، وتحقق الأمل المنشود فوضعته غلاماً زكياً مشرق الوجه مُفتر الثغر وضاح الجبين . يقبض كفيه الصغيرتين فكأنما يقبض بهما على نواصى المشرقين والمغربين !

وبدا للملك أن يرسل رسله إلى دلفى يستنبئون كهنة أبوللو عما سيكون من شأن الغلام ، وما يضمره له الغيب فى صفحته

وا أسفاه ! لقد عاد الرسل من دلفى بأشأم نبوءة !!

« إذا عاش هذا الغلام فانه يقتل أباه ، ويتزوج من أمه ويجر على شعبه شقاء ما ينتهى حتى تفنى ذريته ! ! »

يا للهول ! لقد سمع الملك إلى النبوءة ؛ وكأنما انطفأت فى عينيه شمس السعادة الشرقة ، وكأنما ران على قلبه من الهم ما يضنيه ، فما يدرى ماذا يصنع ! ؟

أما الملكة ، فيالها من شقية مرزأة ! لقد أحست ، منذ عرفت النبوءة ، كأنما قد ولدته أفعوانا أرقم ، كهذه التنانين الخرافية التى تمتلئ بها أساطير قومها ! . . .

— ٣ —

وأسقط فى يد الملك ، ثم اعتزم أن يُقتل الغلام ، فعسى أن تبدله الآلهة خيراً منه : « إن نبوءات دلفى لا تكذب ولا تطيش ، وما دام هذا الولد سيقتلنى إذا عاش ، فانى قاتله ، ومجنب أمه الفضيحة ، وشعبى الرزايا والأشجان ! »

ودعا اليه واحداً من خدمه المخلصين فأسر اليه بكلمات . . . واحتمل الخادم الغلام ومضى به إلى البرية ليذبحه ...

ونظر الرجل فى وجه الطفل فرأى البراءة والطهارة والنقاء ، ورأى عينين صافيتين تطل منهما السماء بما فيها من آلهة ... كأنما تأمره ألا يفعل ! ...

ورأى شفتين رقيقتين كأنما تكلمانه بلغة علوية فى ألفاظ كالنسيم الحلو لا تُبين ، ولكن تُفهم ... ولا تُسمع ولكن تُفهم ... تسترحمانه !

ورأى أذنين ترتعشان كالديناري ، كأنما تقولان له : « أيها الرجل لقد سمعنا ما أسر إليك الملك فحذار أن تقتل هذا الطفل صاحبنا ! ... »

ثم نظر الرجل فى السماء فرأى سحاباً رقيقاً ممزقاً تصبغه الشمس بأرجوان خفيف كالدم المطلول ، فيجفل قلبه ، وتراع نفسه ويقسم ألا يقتل الولد !

ولكن ماذا يقول للملك ؟ إذن : « لأربط الطفل من عقبيه فى هذا الفرع الغليظ من تلك الشجرة ، ولأتركه للآلهة تصنع به ما تشاء ... فاذا حق عليه القتل ، سعت اليه وحوش البرية أو عقبان السماء فاغتذت به ... وإلا ، فليحى حياته التى تريدها الآلهة ... وليكن بعد ذلك ما يكون ! »

— ٤ —

وبكى الطفل ، وملأ البرية بصراخه المحزن ، ورددت الآكام ومشارف الجبال عويله المؤلم ، ثم مر به راع كان يفتقد أحد نعاجه الضالة فرثى له ، وتقدم فحل الرباط عن عقبيه ، وشدهه أن يجدهما متورمين مما ألم بهما ، فسماه (أوديبوس !) (١)

وارتحل به إلى كورنثه ، فرآه معه من ثم عنه إلى الملك الذى كانت امرأته عقيما لا تلد ، فحبب إلى پوليبوس أن يرى الطفل عسى أن يتخذه ولداً . فلما أحضر إليه أنس فى عينيه بريقاً عجيبا وفى جبينه لألاء قويا ، وفى روحه الصغيرة روحا كبيرا يكاد يملأ الأكوان ... فقال للملكة : « إن لم يكن هذا الطفل ابن ملك ، فما أحسبه خلق إلا ليكون ملكا ... ألا تتخذه ولى عهد ؟ »

وشب أوديبوس ، أو أوديب ، وأحبه الملك ، وغمرته الملكة باعزازها ، وكان هو يهتف بالملك « أى أبى ! » وبالملكة « يا أمى ! » وهو لا يعرف مما أخفياه عنه شيئا !

— ٥ —

أما لايوس ، ملك طيبة ، فانه تنفس الصعداء لما حسب من قتل الطفل ، وتنفست الملكة الصعداء كذلك ... أما الأقدار ، فما برحت تسخر منهما ، وتضحك ملء أشداقها عليهما ... وما برحت كذلك تعد العدة للمستقبل الرهيب !

— ٦ —

وترعرع أوديبوس ، ونشأ مفتول العضل هرقلى الصدر ، قويم الأخلاق ، فيه نخوة الملك ، ورفعة العرش ، إلى كرم أرومة وطيب محتد

وحم القضاء ... وأقيم فى القصر الملكى حفل فخم ، دعى إليه سادات طيبة وشبابها ... وقدمت الآكال والأشربات ... وتقهقت أباريق الخمر فى الكؤوس ... وفى الرؤوس ، وذهبت أشوابها بوقار الشباب فتحرش بعضهم بأوديب ، الذى لم يكن ممن تأسر الخمر لبه ، فرده أوديب فى حزم ، وفى أدب ؛ ولكن الشاب خاشن ولى العهد ، ثم لمزه ، وهو لا يدرى ما يقول ، لمزة نبهت غافل أوديب ؛ ذلك أنه عيره بأصله المجهول ...

— ٧ —

« أصلى المجهول ؟ ماذا يقول هذا المتوه ؟ مجهول كيف ؟ أو لست ابن پوليبوس ملك كورنثه ؟ أو ليست هذه الملكة الجليلة أمى ؟ بلى ؟ ! لقد كنت أحس دائما أننى لا أستنشق هواء الأبوة فى هذا القصر ! ... ويلاه ! السر العجيب ... السر العجيب ... »

وانطلق المسكين إلى مخدعه يبكى وينتحب ... وانطلقت الملكة فى إثره ترفه عنه وتواسيه ، وتحلف له بالأيمان المغلظة أنه ابنها ... وأنها أمه ... ولكن ... هيهات ! فلم يكن أوديب من البله والغفلة بحيث ينخدع بهذه الأيمان التى لا تصدر عن اخلاص الأم الحقيقية ، ولا يشف عن صدقها حب الأمهات الذى يدل على نفسه ...

« لا ! بل أنا أوديب التاعس ! أنا أوديب المسكين الذى لا يعرف له أماً ، ولا يدرى له أباً ... الوداع أيها القصر المملوء بالخداع ... الوداع أيها الملك الذى أكرمتنى كأننى ابنك ... إغفرى لى أيتها الملكة التى أحببتنى كأننى ابنها ... سأنطلق ... سأهيم على وجهى فى القفار والفلوات ... لا بد أن أعرف ... لا بد أن أعرف من أنا ... من أبى ... من أمى ... الوداع ... الوداع ... »

وانطلق المسكين لا يلوى على شىء ... غير مزود من هذا الملك العريض والسلطان الواسع إلا بسيفه ... حتى إذا بلغ أفق طيبة ، وقف على ربوة عالية يلقى على ملاعب الصبى ومراتع الشباب نظرة باكية ... ثم مضى ...

— ٨ —

كانت الشكوك القاتلة تعصف بنفس أوديب ، وكان يحاول أن ينسى كلمة الشاب المفتون الذى لمزه ... ولكن عبثاً حاول ذلك ... وكان يجهد فيما بينه وبين نفسه أن يفسر تلك النظرات الصارمة التى تبادلها ضيوف القصر بعد أن قال الشاب قالته ، ولكنها كانت تعتاص بالمعانى السود فى نفسه ، وتثير فى أعماقه ألوانا من الريب تغلى بدمه فى رأسه ...

وذكر أمه — أو الملكة — وهى تحاول أن تتغفله ، وذكر سمات الخداع فى ألفاظها ، فوقر فى نفسه أنه لا بد ابن

(١) معناها فى اليونانية (ذو القدمين المتورمتين) وفى بعض المصادر أن ملك كورنثه هو الذى سماه هذه التسمية